الفصل الثامن:

فلسطين والفراعنة

رشا حسني

فلسطين الجسر البرى بين قارتى أسيا وأفريقيا، كما تربط بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، بما يزخر به هذا الوطن من ثروات، وما يتمتع به من موقع استراتيجى بالغ الأهمية، من أجل هذا الموقع لطالما تعرضت فلسطين للغزو، وإتخذ منها الطامعون نقطة إنطلاق نحو دول عربيه أخرى، وعلى رأسها مصر.

تنبه الفراعنه لأهمية آسيا بالنسبه لمصر، وبالطبع فإن آسيا، التي اترتبطت بها الحضارة الفرعونيه، هي من منطقة محدودة المعالم، بخلاف آسيا المعروفه حاليا، الخاصة بالشرق الأدنى. (١)

في عصر ما قبل الأسرات المتأخرة، دلت البحوث عل أن لآسيا تأثيرا عظيم على سكان وادى النيل وسرعان ما استثمرت مصر، بدورها، شبه جزيرة سيناء وفلسطين، من الناحية الاقتصادية في عهد الدولة القديمة (٢).

كان هناك أساس قومى لما بلغته مصر القديمه، من التقدم والحضارى عماده الحركه القوميه، والتي يقصد بها الجهود التي بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته في سبيل تكوين مصر الحرة المستقله

والذود عن كيانها والدفاع عن إستقلالها [٣].

أولا : العلاقات المصريه الفلسطينيه في عهد الدوله القديمه :

بدأ عهد الدوله القديمه مع بداية الأسرة الثالثة فقد وضع الفراعنة، في ذلك العهد، أسس ودعائم الحضارة المصرية التقليدية، وصار استخدام الأحجار في بناء المنشآت أمراً يسيراً ثم بدأ الإتجاه نحو المناجم، الواقعه في جزيرة سيناء، والغنية بالنحاس والفيروز [٤].

لما تولى زوسر حكم البلاد، في عهد الأسرة الثالثة، واهتم بحماية البلاد من الغارات الأجنبية، التي كانت تجتاح أطرافها بخاصة من البدو، لذلك قسم حدود البلاد إلى مناطق أطلق عليها اسم أبواب المملكة وجعل في كل منها حامية، ونصَّب على كل من هذه المناطق حاكماً خاصاً حمل لقب " مرشد الأرض "، وكانت له الكلمة العليا على حكام المقاطعات وقد أقيم في العرابة أقدم الحصون المصرية حيث اهتم المصريون بإقامة حصون في الأماكن التي يُخشى تعرضها للغزو، كانوا يقيمون الحصون في المواقع التي يكون فيه االنهر ضيقا فإذا باعتهم العدو في النهر، أصبح من الصعب علي العدو ان يخترق المكان الضيق المحصن، ويتمكن منه المصريون، أما نقاط الضعف التي سهل على العدو اختراقها خاصة عند بداية الوديان التي تشرف على الصحراء، والتي يسهل على البدو وغيرهم الانقضاض منها على البلاد، فكان الفراعنة يقيمون فيها حصونا مجهزة بكل المعدات سميت " أبواب المملكة " [٥].

أما الأسرة الرابعة، فقد عُنيت ببناء الأهرامات وأ طلق على تلك " الأسرة " بناة الأهرام الكبرى، ولم يمنع ذلك من الإهتمام بتأمين حدود

مصر الشماليه الشرقية، حيث يعتقد علماء الآثار بأن السور العظيم الذي أقامه أمينمحات الأول لسد برزخ السويس في وجه المغيرين، لم يكن إلا تجديدا لسور سبق أن أقيم في عهد الدوله القديمة، ويعزز هذه النظرية أن اسم " البحيرات المرة "، كما كُتب في متون الأهرام، خصص في نهايته بسور " هرم بيبى الأول " يضاف إلى ذلك أن الفرعون " سنفرو " من الأسرة الرابعة، قد خلد اسمه، ضمن أسماء عدة قلاع في هذه المنطقة (٦).

استمر فراعنة الأسرة الخامسة في تشييد أهرامات، ولكن أقل حجماً من أهرامات الأسرة الرابعة، واستمروا كذلك في إرسال حملات إلى محاجر " الديوريت " ببلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء، وإلى مدينة " جبيل " بفينيقيا كما عملوا على تأمين الحدود عن طريق شن غزوات حربية على الليبيين والنوبيين والبدو الرُحَّل (٧).

الجيش والأسطول معاً لأول مرة في التاريخ:

في عهد الأسرة السادسة أرسل الملك " بيبى الأول " القائد " ونى " على رأس الجيش في حملة ضد فلسطين، تعد الأولى من نوعها في تاريخ مصر والعالم إذ أنها أول حملة يشترك فيها الجيش والأسطول وقد تجنب الجيش المصرى الطرق الصحراوية وانتقلت القوات عن طريق البحر، إلى نقطة الهدف وسبب القيام بهذه الحملة تزايد الهجرة من أهل بلاد ما بين النهرين " موبوتامايا "، وتقدمهم في هجرتهم إلى أن وصلوا إلى فلسطين ثم الحدود المصريه مما اضطر فرعون مصر آنذاك إلى منع هؤلاء المهاجرين الآسيويين من دخول مصر (٨).

غير أن " الدولة القديمة " انهارت تماما في أواخر عهد الأسرة السادسة بسبب تفاقم النزاعات الاستقلالية وإن حافظت على المستوى للبلاد ولم تتوقف الإمدادت الغذائية والتبادل التجارى بين البلاد المجاورة [٩].

يتضح مما سبق إدراك الفراعنة لأهميه تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية والتصدى للهجمات أو الغزوات التي تتعرض لها فلسطين حتى لا تمتد يد الغزاة في مراحلة تالية، نحو مصر.

تؤكد الوثائق التاريخية على أن أهم الوظائف التي ظهرت في مصر القديمة وظيفة " قائد قلعة الأراضى الشمالية " ولا يعزى هذا اللقب إلى قلعة في فلسطين أو سورية بل إلى قلعة الشمال الشرقى من الحدود المصرية ضمن سلسة الحصون التي أ قيمت لحماية الحدود من هذه الناحية، حيث كان لابد لمصر من معاقل يعززها جيشها عند حدودها الشرقية أما في الجنوب فكانت حدودها محمية ببلاد النوبة، التي كانت تحت حكم ملك مصري منفصل بإرادتها [١٠].

ثانيا العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة الوسطى:

شهدت الأ سرات من السابعة إلى العاشرة بلبلة شديدة نتجت عن التطاحن الذي ساد بين مختلف الطامعين في العرش إلى درجة أن الأسرة العاشرة اعترفت بوجود " الأسرة الطيبية " نسبة إلى طيبة بمصر العليا المنافسة لها وإن كانت قد حافظت على حدودها عند الدلتا الشرقية من خطر الآسيويين وحرصت بشكل أو بآخر على صيانة التراث الثقافى [١١].

استحوذت الأسرة الحادية عشرة على الموارد الطبيعية، وكذا الثقافية، التي سمحت لها باستئناف السياسة التقليدية لكبار الفراعنة من إرسال بعثات إلى المناجم والمحاجر ومصادر التجارة الخارجية وترميم وإصلاح المعابد وتشييد المبانى الجنائزية على أوسع نطاق [١٢].

كانت مصر - في تلك الفترة - تجد كفايتها في تربة أراضيها ولا تخرج عن نطاق حدودها، إلا عندما كانت إحدى الممالك المجاورة تهدد حدودها، أو عندما تغير على تخومها، طلبًا للغنائم. وفي أوائل عهد " إمنمحات الأول " مؤسس الأسرة الثانية عشرة تقدم في زحفه إلى فلسطين ويرجح أنه أولمن اهتم بحماية التخوم وأقام القلاع في وادى " النطرون "، و " الواحة الخارجة " [١٣].

عمل الفراعنة، منذ عهد الدولة الوسطى على تأسيس امبراطورية مصرية في الأصقاع الآسيوية، المجاورة لمصر، غير أن هذه الإمبراطورية التي بدأت تأسيسها في تلك الحقبة كانت تهتم بمد نفوذها على الأفكار الخاضعة لها، وفرض الضرائب على أهلها، وتهديدهم بالغزو، إذا حاولوا التمرد، وكان ذلك في عهد أواخر فراعنة الأسرة الثانية عشرة [١٤].

تمكنت الأسرة الثانية عشرة من صياغة سياسة خارجية فعالة ارتكزت على معرفة البلاد المجاورة وإقامة علاقات متنوعة معها، وفي إطار ذلك، تم تعزيز النشاط التجارى مع سوريا وفلسطين، وفي الوقت نفسه هاجر العديد من الآسيويين إلى مصر ولا شك أن قصة سنوهى تعكس ذلك تماما [١٥].

و " سنوهى " هو هارب سياسى، فر من منطقة المراقبة المصرية عند موت " أمنمحات الأول " قد مر في رحلته بساحل فينيقيا ثم اخترق الجهة الشرقية حيث استقبله أحد أمراء " رتنو العليا "، وهو إقليم غنى بالفاكهة والكروم والماشية رغم أنه كان يعيش على مقربة من طريق يُرى منه الذاهب إلى مصر والراجع منها، فإنه لم يكن في متناول الشرطة المصرية أو حتى سلطانها القضائى، ويرجح أنه كان يسكن في إقليم " بقعا "، الذي يحتوى على طريق يمتد شمالا وجنوبا بين لبنان والإقليم المقابل له، ويؤكد ذلك أن المراقبة الفعليه المصرية في هذه الجهات كانت في فلسطين وفينيقيا، أكثر منها داخل بلاد سوريا، قبل أن يتمكن الفراعنة، الذين حكموا في نهاية الأسرة الثانية عشرة من مد نفوذ مصر إلى آسيا [١٦].

في عهد إمنمحات الثانى عادت العلاقات بين مصر وجاراتها في الشمال الشرقى، في سوريا وفلسطين، على أحسن ما يكون، وقد كان هؤلاء الأعداء من طراز خاص، حيث كان في مقدورهم أن يهددوا الأمن على الحدود لكنهم، في الوقت نفسه، لم يستطيعوا المقاومة، وهم، دائما، في حرب ينتصرون أو يهزمون، ولا يعلنون يوم هجومهم، لذلك كان أكبر ضمان ضد جار كهذا، أن تقيم الدولة المعاقل، والحاميات، على الحدود، وقد تم تشديد الرقابة على الحدود الشرقية لمصر، حيث يُحمى الطريق المسمى " طريق حور " بقلعة سارو، الذي يؤدى إلى الصحراء، بواسطة " وادى طليمات "، قد سُد " بجدار الأمير "، وإن كان سلطان الفرعون أكثر إمتدادا، داخل سوريا، فقد كانت المحاصيل الآسيوية ترد

إلى مصر، وكان " أمنمحات الأول " يمتلك على النيل، مثل سلفه " سنفرو " أسطولا من السفن المصنوعة من خشب الأرز، المُصدر من " جبيل " (ببلوص). وقد كان البدو يسعون إلى الإقامة في مراعى وادى النيل، كلما تعرضوا لضيق الرزق، وبهذه الطريقة وفد في السنة السادسة من حكم " سنوسرت الثانى "، رئيس الأجانب " إيشا " ومعه عشيرته، التي كانت تتألف من ٣٧ من الكنعانيين (١٧).

كانت آسيا ميدانا للحروب، غير أن سيطرة " امنمحات الأول " و " سنوسرت الأول " لم تمتد قط أكثر من إخضاع شبه جزيرة سيناء. ومن جهة أخرى فقد قامت في عهد " سنوسرت الثالث " حملة إلى فلسطين وسار قائد الجيش نحو الشمال، ليخضع الأسيويين ويدل تمثال " تحوتى حتب " الذي عثر عليه في بلدة " مجدو "، وتمثال " سنوسرت عنخ "، الذي إكتشف في " رأس شم " على أن العلاقات المصرية الآسيوية لم تقتصر على النواحى التجارية والثقافية فحسب، بل كانت ثمة علاقة حربية وإدارية أيضا، وتدل الشواهد على أن ملوك الدولة الوسطى مدوا نفوذهم إلى آسيا، وأنه كانت هناك إمبراطورية من نوع خاص، ضمت هذه الأقاليم الآسيوية المتاخمة (١٨).

وقد اكتشف تمثال يخص " سنوسرت عنخ " في آسيا، واعتبر أهم دليل على أن هذا الوزير المصرى خدم في بلد أجنبى وشغل مركزا ساميا فيه، ويحتمل أن إقليم سوريا، عندئذ، كان خاضعا لمصر، وإن كان مستقلا اسميا، كذلك إكتشف تمثال لتحوتى حتب الكاهن الأعظم، الذي أقام في مدينة " مجدو " بما يؤكد النفوذ الإمبراطورى لمصر في آسيا

(١٩).

شهدت مصر في أعقاب الأسرة الثانية عشرة حالة من إهتزاز العرش، تجلت خلال الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، حيث تتابع علىالحكم حوالى ستين فرعوناً، لم يبق معظمهم على كرسى العرش إلا بضع سنين، وأحيانا بضعة أشهر. وكان عدد كبير من هؤلاء الفراعنة من العامة والعسكريين والأجانب (الآسيويين)، وقد ظهرت أُسرة جديدة في " أفاريس "، الميناء النهرى المؤدى إلى أسيا و " جبيل ". واستطاع الهكسوس بإزاحتهم لتلك الأسرة الأخيرة أن يضعوا أيديهم على مصر خاصة وان هذه الأسرة كانت تعيش في منطقة " أفاريس " الخاضعة للملكة المصرية إلا أن غالبية سكانها كانوا من الآسيويين لذا سرعان ما طوتها موجة الهكسوس، الذين بسطوا نفوذهم على مصر إنطلاقا من تلك المملكة (٢٠).

ثالثا : الهكسوس في مصر:

قبل كشف رموز اللغة الهيروغليفية، كانت المعلومات الخاصة بالهكسوس تنحصر فيما رواه المؤرخ اليهودى " فلافيوس يوسفس "، الذي عاش خلال القرن الأول الميلادى وقد أخذ معلوماته من المؤرخ المصرى " مانيتون " محاولا رفع شأن اليهود، بإدعاء أنهم و الهكسوس عنصر واحد. يقول يوسفس عن مانيتون: " تجرأ قوم من أصل وضيع، من الشرق، على غزو بلادنا في عهد تحتمس، وتمكنوا من البلاد دون نشوب واقعة حربية، وبعد أن تغلبوا على القادة أحرقوا المدن بوحشية وأزالوا معابد الآلهة وساروا في معاملة الأهلين، بكل قسوة، فقتلوا

الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وفي نهاية الأمر نصَّبوا واحدا منهم " سالايتس " ملكًا واتخذوا مدينة منف مقرا له.. وتوفى، بعد أن حكم البلاد ١٩ سنة تولى بعده خمسة ملوك كان الملوك الستة يطمعون في محو الشعب المصرى " (٢١).

واستطرد المؤرخ اليهودى يوسفس في روايته مدعيا أنه بعد هزيمة " الرعاة " (الهكسوس) واستسلامهم، مقابل عقد معاهدة تنص على أن يجلون عن كل أرض مصر، غادر منهم ما لا يقل عن ٢٤٠ ألف أسير، حملوامتعاهم، مخترقين الصحراء إلى سوريا ولخوفهم من الآشوريين، أقاموا مدينة في الإقليم الذي يدعى " يودا(*) " صالحة لإيواء جمعهم الهائل، وأطلقوا عليه " أورشليم " (٢٢).

فند المؤرخون هذه الرواية، وشككوا في صحتها من حيث عدد رجال الهكسوس، وعدم معقولية إقامتهم لمدينة جديدة فور طردهم من مصر ولا يخفى ما لتلك الرواية من قيمة في نظر المؤرخ اليهودى المتحيز، أما الرأى المتفق عليه فيفيد بأن كلمة " هكسوس " مركبة من كلمتى " حقاو "، " خاسوت " الهيروغليفية، وتعنيان " حكام الأقاليم الأجنبية " (٢٣).

من ناحيةٍ أخرى، أشار بعض المؤرخين إلى أن الهكسوس هم أنفسهم " العمالقة " الذين ينتمون للقبائل الكنعانية، التي أقامت في جنوب فلسطين وسيناء وقيل بأن فريقًا منهم نزل بلاد نابلس(٢٤).

على أية حال، فإن أهم ما يلفت النظر في غزو الهكسوس لمصر، هو الكيفيه التي نفذوا من خلالها تلك الخطوة فقد كانت ثمة فكرة راسخة عند

عامة المؤرخين بان الهكسوس استولوا على مصر فجأة، عندما اندلعت الحروب الداخلية فيها غير أنه توجد عدة دلائل تؤكد بأن أولئك الغزاة كانوا يمثلون قوة ثقافية في وادى النيل، منذ عهد " سنوسرت الثانى، " أى في منتصف عهد الدولة الوسكى، عندما كانت مصر في أوج عظمتها، وقد غزا الهكسوس مصر، تدريجيا وتسربوا تدريجيًا وتسربوا للبلاد، في جماعات صغيرة متفرقة إلى أن تمكنوا من توطيد أسرة تمثلهم وهى الأسرة الخامسة عشرة[٢٥]...

من المسلم به أن الهكسوس قد تمكنوا من مصر بعد أن تسلطوا على فلسطين، من قبل، ولم يفدوا إلى مصر بوصفهم فاتحين أو غزاة، بل بوصفهم مهاجرين مسالمين، مكَّنوا أنفسهم بمثابة ملوك صغار في الدلتا الشرقية، ومنها أفلحوا في التغلب على صغار ملوك الوجه القبلى، الذين كانوا لا يحكمون إلا مددًا قليلة ويبدو واضحا من متن خاص بحرب التحرير لرفع نير الهكسوس، أن بلدة " شاروهين " في فلسطين الجنوبية، كانت معقلا للهكسوس، وقد فتحها " أحمس " بعد أن قام بحصار ناجح بلدة " أواريس " عاصمة الهكسوس في مصر، التي يدل وقوعها في الدلتا الشرقية على أن الهكسوس كان لهم علاقة وثيقة بفلسطين ومن المحتمل أن يكون قد حكموا الجزء الجنوبى منها [٢٦]..

تبرهن كثير من الآثار على ان الهكسوس كان لهم إتصال وثيق بآسيا، ومن ثم أخذوا عنها قوتهم الملحوظة في فنون الحرب، خلال الحرب الفاصلة التي شنوها على المصريين، الذين إعتمدوا بدورهم على أراضيهم الخلفية في أفريقيا؛ وهكذا نخرج بفكرة أن حروب التحرير هذه

كانت حروبا بين آسيا وأفريقيا وتشير الوثائق إلى ان " كاموس " قد بدأ في طرد الهكسوس وان أخاه " احمس " قد نجح في طردهم، نهائيا، من مصر فقد سقطت " اواريس " بعد حصار طويل، ثم سقطت " شاروهين " الفلسطينية، وبسقوطها أبعد الخطر عن الشمال المصرى وكسرت شوكة الهكسوس على الأقل في هذه الفترة [٢٧]

غرس تحرير البلاد من الهكسوس الروح القومية في نفوس المصريين وحفزهم لغزو معاقل الهكسوس في فلسطين وسورية ولبنان، فشنَّت مصر عليهم وعلى حلفائهم في عهد الدولة الحديثة، حروبا دفاعية بقيادة " تحتمس الثالث " بطل معركة " مجدو " عام ١٤٧٩ ق. م. استمرت هذه الحروب لسنين عدة، حتى اطمأنت مصر على كيانها، ومن ثم اتسعت رقعتهافامتدت حدودها من أعالى الفرات شمالا إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا [٢٨]...

كانت الحروب التي خاضتها مصر في سبيل تأمين حدودها، حروبا دفاعية هدفها الدفاع عن النفس ولم تكن بهدف الفتح أو الغزو، ولم تكن مصر تحارب أهل تلك البلاد بل حاربت الهكسوس الذين اتخذوا منها قواعد للانقضاض على مصر، نفذ هذه السياسة الدفاعية القومية ملوك مصر خاصة تحتمس الثالث و رمسيس الثانى [٢٩]..

رابعا: العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة الحديثة:

على الرغم من أن الغارات التي قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشرة في، أول الأمر مخترقين بها جبال " الكرمل " عام ١٥٨٢ ق. م، قد لا يكون الدافع لها، في الأصل، إلا الإنتقام من الهكسوس فإنه كان يستهدف

كذلك تلاشى مد الهكسوس وقد تعلم المصريون من تلك الأحداث وكانت حملاتهم في الجنوب الغربى لآسيا في عهد " أحمس الأول " وعهد " تحتمس الأول " مقدمة لتمكين ملكهم هناك وحتى ذلك الوقت كان الأمر قاصرًا على الإغارة على قبائل البدو أو على أهالى " رتنو " في جبال الجليل دون الاستيلاء على أماكن حصينة مثل عسقلان أو مجدو أو غزة إلى أن اتخذ تحتمس الثالث موقفًا جديدا تجاه آسيا (٣٠)...

بعد أن انفرد " تحتمس الثالث "، بالحكم، أخذ في تأسيس إمبراطورية في أقاليم آسيا بصورة ثابتة وسياسة مخططة، بالإستيلاء على " غزة " و " مجدو " والأماكن الحصينة الأخرى في فلسطين، ثم لتحتمس الثالث ضم الجزء الجنوبى الأقصى من سوريا وكانت هذه الإمبراطورية من الدرجة الثانية، أى أقاليم يدير شؤونها حكام من أهل البلاد نفسها. نصَّبهم الفرعون برضى منه لولائهم له، إلى جانب بعضهم الحاميات والعمال الذين عينهم الفرعون هناك وكانت حدود الإمبراطورية تبدأ من ساحل البحر المتوسط وشمالى " إرواد " ثم تنحنى إلى الجنوب عند انفصال نهر " العاصى " عن نهر " الأردن "، ثم تأخذ بالتلاشى في الصحراء الشرقية، على مسافة ضئيلة من جنوبى " دمشق "، وكان الجيش المصرى يقوم بحملات تأديبية في جهات مختلفة من هذه الأقاليم السورية الشمالية ولم يقتصر ذلك على شمالي " فينيقيا " والجزء الأسفل من نهر العاصى بل امتدت هذه الحملات إلى " بلاد نهرين " حتى وصلت إلى بلدة " تونب " (٣١)..

كانت الإمبراطورية المصرية في آسيا من اعظم الإمبراطوريات

التي ظهرت في الشرق القديم. فقد مهدت الحملات التي بدأها تحتمس الأول لترسيخ السيادة المصرية على تلك البقعة الشاسعة من آسيا، التي تبدأ من الحدود عند برزخ السويس، وتنتهى عند منحنى الفرات، ولا أدل على أهمية تلك المنطقة لضمان إستقرار مصر من عدم وقوع حروب تستحق الذكر، في عهد خلفه تحتمس الثانى والملكة حتشبسوت، كما لم يُسمع بثورات في سوريا، إلى أن ألف فلول أمراء الهكسوس والولايات الأخرى حلفا ضد مصر مما اضطر تحتمس الثالث لمواجهتهم، وتكوين تلك الإمبراطورية المصرية الشاسعة. ضمانًا لأمن مصر [٣٢]..

منذ بداية عهد الدولة الحديثة تولى " كتاب المجندين "، المسؤولية عن حماية قواعد الحدود واهم هذه القواعد الحصون الواقعة بين حدود مصر و آسيا والقائمة منذ فجر التاريخ المصرى، فقد أقيمت في عهد الملك " سنفرو- كما سبق الذكر - ثم أقيمت، مرة ثانية، في العهد الإهناسى وفي عهد الأسرة الثانية عشرة، أصلحها " امنمحات الأول "، وأضاف إليها وسماها " سور الحاكم "، وحمل قائد تلك الحصون في الأسرة الثامنة عشرة لقب قائد حصن " سيلة " وإتخذت مقرا للإدارة ونقطة الوسط لخط الدفاع وفيها المركز الرئيسى ومنها قامت الحملات التي شنها الفرعون على بلاد سوريا [٣٣]...

بعد موت أخناتون تولى العرش " سمنخكارع " ثم خلفة " توت عنخ آمون " وفي عهده إزداد نفوذ القائد " حور محب " وانتصر في عدة معارك، من بينها معركته ضد أهل " خيتا "، التي تلاها عشرون عاما من الهدوء، على أن ذلك مكَّن المصريين من متابعة حروبهم التي شنوها

على أهل فلسطين بسبب ثورتهم على الحكم المصرى وكان أكثرهم إثارة للقلاقل قوم " خبيرى " (اليهود فيما بعد " وتمكن " حور محب " من إخماد ثورتهم [٣٤]..

قبل تولية " رعسميس الأول " الملك، عمل قائدا لقواعد الدفاع على الساحل، كما أشرف على الحدود الشرقية الشمالية، ويضاف إلى ذلك أنه عمل على حماية طرق الصحراء المؤدية إلى فلسطين؛ وكان من واجبه ألا يدع شخصا غير معروف يدخل الحدود المصرية أو يغادرها ويلاحظ توافر معلومات كثيرة عن حراسة الحدود الشرقية في الدلتا بينما تتضائل المعلومات عن حراسة الحدود الغربية لها وربما يعزى ذلك إلى أهمية الحدود الشرقية ودورها الرئيسى في ضمان استقرار مصر.

بإلقاء نظرة سريعة على ملوك الأسرة التاسعة عشرة في الدولة الحديثة يمكننا تبين أن الإمبراطورية المصرية في آسيا تعرضت لفترة من الاضمحلال لم تنتهِ إلا عندما تولى " حور محب ". وفي تلك الحقبة، كانت أملاك مصر السابقة في آسيا قد أصبحت في يد ملوك آسيويين على أن هذه الممتلكات لم تكن قد ضاعت من مصر نهائيًا لأن الفراعنة الذين أتوا بعده أعادوا لمصر تلك الإمبراطورية التي تسيطر عليها، سيطرة إمبراطورية من الدرجة الثانية، وعلى رأسها فلسطين وفينيقيا، غير أن الفراعنة لم يستطيعوا الحفاظ على هذه البلاد، فنجد مثلا أن مدينة " أرواد " كانت تساعد عدو " رعمسيس الثانى " في موقعة قادش رغم فوزه بها إلا ان انسحابه العاجل من المعركة والمعاهدة التي أبرمها مع " خيتا " دلت على تخلى مصر عن سياستها على سوريا فيما بعد جنوبى فلسطين،

وحتى هذا الإقليم الأخير وفقد، بعد عهد " رعمسيس الثالث "، أحد ملوك الأسرة العشرين [٣٥].

بدأ رمسيس الثانى متحمسا للحرب واستعادة المناطق السورية التي كان تحتمس الثالث قد شيد من خلالها إمبراطورية مصرية عظيمة غير أن رمسيس الثانى لم يحقق على مدى عشرين عاما في الحرب نجاحًا يذكر وانتهى إلى معاهدة لم تحقق شيئا ذا بال مما كان يتطلع إليه [٣٦]...

في معركة قادش أفلت رمسيس الثانى من هزيمة محققة إذ كانت معلوماته خاطئة بالنسبة لموقع الحيثيين ولم يكن لديه جنود استطلاع، كما لم يحصن جناحيه في المعركة ومن المحتمل أن الحيثيين بتدافعهم نحو الغنائم، أتاحوا لرمسيس الثانى وجنوده فرصة لتحقيق انتصار جزئى، واتجهت الغارات المصرية صوب الجنوب، دون أن تستولى على قادش. [٣٧]..

يبدو الفرق جليا بين رمسيس الثانى وتحتمس الثالث الذن كان من أبطال الحرب والكفاح ففي حين كان رمسيس يميل إلى السلم لم يكن على كفاءة تحتمس فى المعارك، فقد كاد تسرعه في معركة قادش يورده مورد الهلاك لولا تدخل القدر [٣٨]...

في عهد رمسيس الثانى عظم النفوذ السامى بمصر وقتئذ، ثم ظهر الأوربيون لأول مرة في تاريخ مصر القديمة، فانزلوا جنودهم على ساحل غرب الدلتا، أدى ذلك النفوذ فيما بعد إلى إضطراب البلاد وسقوط الأسرة التاسعة عشرة. [٣٩]

قامت حركة التمرد التي قام البدو الآسيويين في فلسطين، في عهد " سيتى الأول "، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المتأخرين، حيث سعوا لتوطيد أقدامهم في فلسطين وانتهز البدو المغيرون الفرصة للتخلص من تسلط مصر على بلادهم مما دفع سيتى الأول إلى قيادة حملة ضد فلسطين مخترقا صحراء قاحلة في شمالى شبه جزيرة سيناء، جنوب بحيرة " سربونيس "، وكان هذا هو أقدم طريق في العالم وهو الذي استخدم للغرض نفسه في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ويمتد شرقا من ثارو حتى رفح في المرحلة الثانية من الحرب، وبعد أن غرس " سيتى الأول " الخوف في قلوب المتمردين اشتبك في معركة دامت يوما واحدا وانتهت بانتصار الجيش المصرى انتصارا باهرا[٤٠].

على الرغم من أن سيتى الأول لم يوافق في عهد الإمبراطورية المصرية آسيا إلى ما كانت عليه في عهد الأسرة الثامنة، فإنه أفلح، إلى حد كبير، في إعادة السيطرة المصرية على فلسطين كلها، وواصل نضاله، أمام دولة " خيتا " في الشمال، التي كانت تقف لمصر بالمرصاد " [٤١].

أعقب هذا النجاح في الحفاظ على نفوذ مصر وهيمنتها على آسيا إخفاقا جديدا فبعد الجهود التي قام بها الملك " سيتى الأول " ومن بعده رمسيس الثانى، ثم مرنبتاح، في دحر الغزاة، والاحتفاظ بفلسطين واجه الملك " سيتى الأول "، ابن " مرنبتاح "، معارضة من جانب الطامعين في الحكم وبعد سنوات عدة غاب عن مصر القائد الزعيم فوقعت فريسة في أيدى كبار الموظفين، والحكام المحليين، استطاع أحد السوريين أن

ينصّب نفسهحاكما للبلاد، وقام أعوانه بإبتزاز الشعب المصرى، ثم قام الملك " ستنخت " بوضع حد لهذه القلاقل مؤسسًا السلالة الملكية الثانية المعروفة بإسم الرعامسة ثم تولى الحكم بعده سبعة ملوك آخرون حملوا إسم " رعمسيس " (٤٢).

عمل " رمسيس الثالث "، ابن " ست نخت " على إنقاذ مصر من هجمات الليبيين وغزوات البحر، واحتفظ ببعض المواقع في الأراضى الكنعانية ثم سادت بعد ذلك مرحلة طويلة من التدهور وطول ثلاثة أرباع قرن من الزمان لم تضع مصر قدميها في سيناء بعد موت " رعمسيس السادس " (٤٣)..

من اللافت أن معظم الغزاة - إن لم يكونوا كلهم - قد اختاروا، في الحقب التاريخية المختلفة، البوابة الشرقية لحدود مصر، موطئا لأقدامهم على سبيل المثال، فقد بدأ " قمبيز " - أول عاهل فارسى - الحكم على مصر عام ٥٢٥ ق. م. - بتجريد " أحمس الثانى من حلفائه، متحالفا هو مع كل من ملك جزيرة " ناموس "، وملك فينيقيا، ما سهَّل لقمبيز تعزيز الحملة البرية على مصر وأسطوله البحرى، وأساطيل حليفية، يضاف إلى ذلك أن قمبيز وجد تعاونا من البدو، وقد ضمن قمبيز لنفسه قاعدة أورشاليم " فضلا عن إكتساب الفرس عواطف الجنود اليهود الذين كانوا في خدمة الفرعون وقد جمع " قمبيز " جيش في فلسطين وأرسى أسطوله على ساحل عكا وبدأهجومه على مصر، في ربيع ٥٢٥ ق. م. فزحف الجيش الفارسى من غزة وتقابل مع الجيش المصرى وهزمه في مدينة " الفرما " إلى أن سقطت العاصمة منف (٤٤).

تأكد مما سبق وبمتابعة سياسات الفراعنة في مصر القديمة إدراكهم لمدى اهمية فلسطين على وجه الخصوص ودورها في الحفاظ على إستقرار مصر وأمنها وأنه في كل مرة تتعرض فيها فلسطين للغزو سرعان ما يتطلع الغزاة نحو مص متخذين من فلسطين لوحة قفز تمكنهم من تثبيت أقدامهم في مصر والإنقضاض على خيراتها وإستغلال موقعها الجغرافى المميز.

وبالطبع فإن مراحل التاريخ، المختلفة تشكل دروسا علينا الإستفادة منها وإعادة النظر في تقييم أهمية فلسطين بالنسبة لمصر ودور مصر تجاه فلسطين فالمصير مشترك منذ فجر التاريخ، ولا يخفى على أحد أنه سيظل واحدا، ولن تتمكن مصر من تحقيق أمنها، أو تقدمها الاقتصادى، إلا بحصول فلسطين على حريتها وأمنها، ولا يمكن لفلسطين تحقيق ذلك الهدف المأمول إلا إذا وقفت إلى جوارها مصر وتكاتف معها الوطن العربي.

* * *

مراجع الفصل الثامن

(١) باسكال فيرنوس وجان يويوت، ترجمة د. محمود ماهر طه، **موسوعة الفراعنة**، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩١، ص٤٨.
(٢) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٢٤.
(٣) عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة**، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩، ص١١.
(٤) فيرونوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦ - ٢٧.
(٥) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٢، الهيئة العامه للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥٢ - ٤٥٣.
(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٥٨.
(٧) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.
(٨) سليم حسين، **موسوعة مصر القديمة**، ج١ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.
(٩) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١ - ٣٢.
(١٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩٢.
(١١) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢ - ٣٤.
(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٥.
(١٣) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٣ الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤١١ - ٤١٢.
(١٤) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨٠.
(١٥) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨.
(١٦) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.
(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٤٢١ - ٤٢٢.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٠.
(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٣٤، ٤٣٦.
(٢٠) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨ - ٤١.
(٢١) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٤، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص ٥٧ - ٥٩.
(*) وردت في نسبة كبيرة من المراجع " يهودا ".

obeikandl.com

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٩ - ٦٠.
(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٦٠.
(٢٤) أحمد سلامة النحال، **فلسطين أرض وتاريخ**، ط ١، دار الجليل للنشر. عمان، ١٩٨٤، ص ١١٨ - ١١٩.
(٢٥) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٤ - ٥٦.
(٢٦) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٠ - ٢٤٢.
(٢٨) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٧٣.
(٣٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٥،، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ١٨١ - ١٨٢.
(٣٢) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٤، الهيئة العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.
(٣٣) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩٣ - ٤٩٤.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٨.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٨٥، ١٩٢، ١٩٣.
(٣٦) كنت أ. كتشن، ترجمة د أحمد زهير أمين، مراجعة د محمود ماهر طه، رمسيس الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣٤٩.
(٣٧) بيير مونتيه، ترجمة عزيز مرقس، منصور، **الحياة اليومية في مصر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٣.
(٣٨) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**. ص ١١٠.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١١٠.
(٤٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٣، ٣٥، ٣٨.
(٤١) **المصدر نفسه**، ص ٥٧.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٥.
(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ٥٢.
(٤٤) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١ - ٢.

* * *

obeikandi.com